المصـــدر : الشرق الاوسط

التـــاريخ : 20-11-2007 العـــدد : 10584

الصفحـــات : 15 المسلسل : 68

من أوجع الأرض؟ نحن أم هم؟

الأرض من حولنا تميد، وتتوجع، ليس بسبب الحروب المتفجرة في كل مكان، ولا بسبب الأمراض والأوبئة التي ظنت البشرية أنها قد أودعتها ذاكرة التاريخ، مثل الملاريا والجدري، أو الأمراض الجديدة، كما يبدو من أسمائها، مثل انفلونزا الطيور وجنون البقر وحمى تصدع الغنم، وليس بسبب هيمنة الخوف والتوجس بين بني البشر، وقيام الحواجز الثقافية من جديد، بعد أن ظننا أنها قد ولت إلى غير رجعة مع ثورة الاتصالات والمواصلات.

ليس بسبب كل هذا ـ مع جدارة كل هذا بالإزعاج! ـ ولكن بسبب أن الأرض فعلا، وبدون مجازات شعرية، تتألم وتتوجع بسبب الضغط الرهيب عليها من قبل بعض أولادها، وهم البشر.

الحديث يعلو يوما وراء يوم، وسنة خلف سنة، وبشكل تصاعدي، عن مرض البيئة واختلال الطبيعة في الأرض جراء استنزاف البشر لموارد الأرض بشكل مسرف وقاس، حيث يوازي ما يستهلكه البشر من موارد خلال العشرين سنة الأخيرة، مئات ومئات السنين مما استهلكه الأسلاف.

الغلاف الجوي عليل، والجليد، الذي هو «مكيف الأرض» يذوب ويتلاشى في الماء، ودرجات الحرارة تتضاعف سنة وراء سنة، والأعاصير تنشأ بشكل غير معتاد، والحرائق غير المفتعلة تضرب الغابات نتيجة ارتفاع الحرارة، وسلسلة طويلة من التفاعلات ناتجة من هذه التحولات البيئية مثل أن مدينة نيروبي التي كانت منشأة فوق حزام البعوض، غزاها البعوض بسبب توفر البيئة الملائمة له في طبقات أعلى من السابق. حسبما يقول الشريط الوثائقي المخيف لنائب الرئيس الأمريكي السابق آل غور: «حقيقة مزعجة» والذي نال عليه نوبل للسلام مناصفة مع احدى لجان الأمم المتحدة.

ان الحديث عن الاحتباس الحراري وضرره على الأرض كلها، ووجوب خفض انبعاث الغازات الضارة التي تبقي على ظاهرة «الدفيئة» او تعرقل انصراف الحرارة عبر الغلاف الجوي، كما هو النظام المناخي السابق، اصبح حديثا عمليا وتحول ـ وسيتحول ـ إلى برامج سياسية، الأمر الذي جعل نجما من نجوم السياسة مثل آل غور، يشكك البعض في نياته، كان شريكا في الحرب، وساهم سناتورا ونائبا للرئيس في قرارات الحرب ودعم صناعة السلاح، جعله الهم البيئي ينقل نشاطه «الحثيث» إلى هذا المجال ويكسب الجماهير، لم يعد بمقدور احد تجاهل هذه القضية ولا حتى أعظم الدول الرأسمالية. الأمر يبدو خطيرا وكما قالت لجنة الأمم المتحدة المشكلة من الحائزين جائزة نوبل للسلام في تقريرها التاريخي عن ظاهرة الاحتباس: إن أفضل الجهود لخفض مستويات ثاني اوكسيد الكربون لن تصبح كافية، وان على العالم التركيز على التكيف على «تغييرات طقسية مفاجئة لا يمكن التراجع عنها».

وسيكون على الرئيس المقبل في أمريكا أن يأخذ في الاعتبار هذه القضية رغم انه سبق للرئيس بوش الأب أن وصف احد ناشطي البيئة بالمجنون لأنه يريد إفقار الاقتصاد الأمريكي بالخضوع لمثل هذه الترهات، كما يوثق شريط غور. لكن الآن وبعد هذه السنين والجهد المتواصل لم يعد الأمر من قبيل الترهات ...!

حسنا، ما علاقة كل هذا بالنفط ؟

هنا ندخل في منطقة سياسية واقتصادية وعلمية تحتاج إلى مجموعة من الخبراء على قدر كبير من الحياد، مع صعوبة وجود الحياد الكامل، ولكن لا بأس أن يشارك المتفرجون والهواة ـ مثلنا ـ في الحديث.. بما أن الأمر يهم مستقبل وجودنا على الأرض.

من يقسو على البيئة هو الغرب وليس الشرق.. والنفط مجرد أداة إن أحسن استخدامها فلن تكون ضارة بالشكل الذي يصورونه

بداية، نعرف أن لدى دول العالم الثالث، ومنها دول العالم العربي، شكا دائما وملحا، ربما يصل درجة الوسوسة أحيانا، ببقاء وسلامة الشعارات التي ترفع من قبل الغرب وتكون ذريعة للتدخل في شؤونهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، من شعار حماية الأقليات في القرن التاسع عشر والثامن عشر إلى تمدين المجتمعات إلى حقوق الإنسان ونشر الديمقراطية إلى مشروع السلام مع إسرائيل إلى محاربة الإرهاب..الخ، فما الذي يجعل شعار حماية البيئة استثناء من هذه العائلة «المريبة» من الشعارات في نظر هذه الدول والمجتمعات ؟

لماذا لا يكون شعار حماية البيئة و«هجاء النفط» والربط بينه وبين مرض الأرض هو أيضا ذريعة لإفقار العالم الثالث ومنهم العرب، وإفقاد النفط قيمته الحقيقية عبر تشجيع البحث عن بديل نقي ونظيف للطاقة ؟

هذا هاجس لا يمكن التهوين من شأنه، على الأقل في اللاشعور العام، ولكن اذا ما ذهبنا أرفع من ذلك، نحو عالم الشعور والوعي، فإن الاهتمام بالمشكلة المناخية والبيئية هو اهتمام أصيل لدى اغلب دول العالم الثالث، والسؤال الأهم هو: على عاتق من يقع الإخلال بمناخ الارض وظاهرة الاحتباس الحراري؟

طبقا لآل غور نفسه، فإن أمريكا تتحمل ـ لوحدها ـ أكثر من دول العالم قاطبة مسؤولية تلويث البيئة واستنزاف الطاقة. أمريكا لوحدها تشهد اكبر حركة طيران (أي تشهد

المصـــــدر :	الشرق الاوسط		
التـــاريخ :	20-11-2007	العـــدد :	10584
الصفحـات :	15	المسلسل :	68

مشاري الذايدي

mshari@asharqalawsat.com

اكبر استهلاك وقود طيران) وهي تشهد أيضا اكبر حركة سيارات. وكما قال ادوارد غولد سميث احد الأعضاء المؤسسين لحزب الخضر في انجلترا، وقد كرس ثروة عائلته لمحاربة السلاح النووي واقام دعوى على أمريكا بسبب سخونة المناخ «مازالت منظورة، طبقا له فإن أمريكا لوحدها مسؤولة عن ربع تلوث الأرض.(المجلة 1449 نقلا عن مجلة بدائل شقيقة مجلة «ذي ايكولوجيست» البريطانية).

العالم كله، خلا أمريكا واستراليا، وافق على بروتوكول «كيوتو» للحد من الانبعاث الحراري.

فالمشكلة إذن ليست من العالم الثالث ولا من نفطه بل من «أسلوب» حياة العالم الأول ومن طريقة استهلاكه لنفطنا، النفط بريء من التهمة.

هل يعني هذا أن النفط ثوبه ابيض من التهمة؟ أبدا، فهو الذهب «الأسـود»، ولكن سواده ليس هو المسؤول «الأول» عن المشكلة، بل نمط استهلاك الغرب وبالذات أمريكا.

الأمر حقا كما قال الملك عبد الله بن عبد العزيز في كلمته أمام زعماء أوبك حول ما يقال عن اثر البترول على البيئة والمناخ، واصفا هذا التصور: «حديث يختلط فيه الحق بالباطل»، معلنا مبادرة من السعودية بتخصيص 300 مليون دولار تكون نواة لبرنامج يمول البحوث العملية المتصلة بالطاقة والبيئة والتغير المناخي، مبادرة انضمت إليها لاحقا بعض دول الخليج بالتمويل.

وأخيرا إذا ما رغب البعض في أمريكا في الحديث عن «إدمان النفط» الأجنبي، فليس من مشكلة في ذلك، ولكن إذا ما ربطوا بين نفط دول الخليج او غيرها من الدول بمشكلة البيئة العامة، ربطا رئيسيا أو شبه وحيد، فعليهم أن يتذكروا أن الخطر النووي على الصحة والبيئة هو خطر دائم وغير متلاش، وأن هذا الخطر جاء من عندهم فقط، من هيروشيما الى تشيرنوبل الى تجارب المحيط الهادي، وإذا ما كان الحديث عن استنزاف الأرض زراعيا فعلينا أن نتذكر أن المتر الزراعي في أمريكا يعصر عصرا من اجل أرباح الشركات الكبرى أضعاف أضعاف ما يحصل في دولة مثل الهند فرضا، وأن جشع الشركات الزراعية هو الذي انتج لنا الثمار المهجنة والمعدلة جينيا.

من يقسو على البيئة هو الغرب وليس الشرق، والنفط مجرد أداة إن أحسن استخدامها فلن تكون ضارة، على الأقل بالشكل الذي يصورونه، إلى حين وجود طاقة أخرى للبشرية أسلم وأرحم، لكن ما يقال الآن عن جريمة النفط «الأجنبي» لا يخلو من تهمة غير نظيفة.

ومن هنا إلى تلك اللحظة التي يعلن فيها وفاة النفط، يكون التحدي: هل تنجح دول النفط في الاستفادة الحقيقية من هذه الثروة الاستثنائية التي لن يكررها التاريخ أبدا ...أبدا ...؟ ذلك هو السؤال الكبير.